مجلة أبعاد
ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلد 07 (عدد 02) – 31 ديسمبر 2020

النزعة الإنسانية مقاربة عقدية- جورج قنواتي أنموذجا

Humanism- Religious approach

Anawati as example

د. شريف الدين بن دوبه*[1]، د.نابتي علي[2]
ghanami_ali@yahoo.fr // charif.bendouba@univ-saida.dz
[1] كلية العلوم الاجتماعية، جامعة سعيدة– الجزائر.
[2] كلية العلوم الاجتماعية، جامعة سعيدة– الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2020/05/13 | تاريخ القبول: 2020/09/12 | تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص:
عرفت النزعة الإنسانية الحداثية ترويجا أدبيا، وإعلاميا والذي لم يكن في الأصل إلا تمريرا لاعتقادات ورؤى إيديولوجية، فالقول بإنسانية مستقلة عن الله، وعن العقائد، مشروع جديد يرغب في وضع المجتمع البشري في حالة التيه والتشرذم.. وفلسفة التمرد والعبث نموذج للتيه الذي أفرزته النزعة الإنسانية في الغرب. من هنا وجدنا أن الإنسية التي دعى إليها الأب قنواتي إنسية ترجع بالبشرية إلى أصولها الطبيعية، والفكرية، والثقافية، التي تشترك فيها، والأنتروبولوجية المسيحية، والإسلامية دليل على ذلك، وقد حاولنا في هذا المقال التعرّض للأسس التي أقام عليها الأب قنواتي الإنسية العقيدية، مشيدا بالنزعة التوحيدية، والوحدوية التي ميّزت هذه الشخصية.

الكلمات المفتاحية: قنواتي؛ الإنسية؛ العقدية؛ وحدة الأصل؛ وحدة الغاية

Abstract:
Humanism in the philosophy of Georges Anawati is based on anthropological structures, religious, because the foundations of modern humanism is based on natural elements or man will be in a serious situation, and delicate.. and the phenomena social proves the leaking of theoretical argument in modern humanism, as well as the humanism of Anawati renders man to his divine, and human nature, and the religions in Anawati are multi forms of a single substance

Keywords: Anwati ; Humanism ; Religion ; Originality; Finality

* المؤلف المرسل

مقدمة:

يؤخذ الاختلاف العقيدي في الراهن السياسي كمؤشِّر للسيادة، ويقاس نجاح المشروع السياسي في فرض الهيمنة على الأمم بالقدرة على إدارة آليات الصراع داخلها، لأن نتائج السيطرة العسكرية مكلّفة للدولة مادياً، وبشرياً، وهذا ما لوحظ في الحربين العالميتين، وانطلاقا من هذا الأصل بدأ التفكير في استثمار الأمم والسيطرة عليها بدون أن تتكلّف الدول المستعمِرة أية نفقات، والمستهدف الأول في السياسة الاستعمارية الجديدة هو الأمم المالكة لوسائل الإنتاج، سواء كانت مادية أو بشرية.

واستقراء المسار التاريخي للعقائد يكشف عن حضور الاختلاف والخلاف بين أبناء المعتقد الواحد، والذي يعود في اعتقادنا إلى سوء في فهم التشريع العقيدي، فهو خلاف عرضي، وليس جوهريا، والمؤسف ما نجده في تاريخنا الإسلامي، حيث نجد تبريرا أصوليا للخلاف في الحديث المشهور:" اختلاف أمّتي رحمة " والذي نجده مبرراً، وتبريرا للصدام، والعنف بين أبناء الأمة الإسلامية، والاختلاف المقصود في النص هو البحث عن الحقيقة، والبحث عن المشترك داخل الاختلاف، وليس الاختلاف المؤسّس للخلاف.

ولا نرغب من هذا البحث إثارة النّعرات الطائفية بين أبناء الأمّة، بل سنسعى إلى تقديم نموذج من أبناء العقيدة المسيحية، نموذجا كان الاستهجان نصيب الطائفية عنده، وليس موردا يسترزق منه كحال أغلبية رجال الدين في المجتمع الإسلامي، إذ كرس حياته في إقامة قنوات تواصل واتصال بين ثقافة العقيدتين في استشراف مستقبل تكون العقيدة فيه ببعدها الروحي تأسيسا لحياة أخلاقية إنسانية واحدة، وليست اجتماعية بدلالة التميّز والتفرد، على قاعدة: " لكل مجتمع أخلاقه". وما أحوجنا إلى هذا النموذج، لأننا لم نعهد داعية في الجماعة الإسلامية يدعو إلى الوحدة بين أبناء الأمة الإسلامية، بل يلاحظ سيطرة العقل الصراطي، وعقدة الفرقة الناجية على جميع الدعاة.

جورج شحاته قنواتي 1993/1905

"الشيء من معدنه لا يستغرب " المحيط الثقافي لعالمية الأب جورج شحاته قنواتي وراء النبوغ والتميز الذي حازه، فأرض مصر مهد الحضارات الإنسانية، حيث كانت حقلا للتزاوج بين الثقافات الإنسانية، والبحث الأنتروبولوجي يؤكد ذلك، فبقايا حضارة اطلنطس زرعت في أرض مصر، وإشكالية الرافد أو الوافد الفكري في الإبداع الحضاري

في مصر في الانتروبولوجيا يشير إلى ذلك، حيث اختلف حول مصدر الإلهام، فالبعض يرجعه إلى السماء والبعض الآخر إلى الأرض حضارة اطلنطس، كما كان وجود النبي يوسف عليه السلام في مصر بداية التلاقح الديني بين التوحيد الفطري الذي عرفه المؤمنين المخلصين من أبناء مصر، والتوحيد الرسالي الذي حمله الأنبياء إلى بني البشر، وفي نفس اللحظة بدأ التلاقح بين حضارة كنعان وبابل، وحضارة مصر، وإضافة إلى ذلك التراث اليهودي والمسيحي والإسلامي الذي كانت مصر فضاءه الخصب، فمحيط بهذا الزخم الثقافي والفكري لا ينجب إلا علماء كوسموبوليتيين، يحبون لأنفسهم ما يحبون لغيرهم، أو يؤثرون على أنفسهم حتى ولو كان بهم خصاصة، والأب جورج شحاته قنواتي ابن هذا التراث، أو بتعبير آخر إنه ابن الإنسان.

المنحى الشخصي عند العظماء لا يقرأ من خلال السلوك الفردي، العاكس لذاتية الشخصية، بل يدرس من خلال المنتوج الفكري والعلمي، فالكُتب بساتين العلماء، ومن خلال الحضور العالمي للشخصية، وتعدّد مؤشّرات المشاركات ينبئ بصفاء السريرة وإخلاص النية عند المفكر، والمكانة الدولية التي حظي بها الأستاذ شحاته قنواتي ليست وليدة تعاطف عقيدي، او انتماء مدني لمجتمع مصر، بل هي مكانة صنعها الأب بفكره وانجازاته، فقد كان عضوا في لجنة ابن سينا سنة 1949 وعضوا في المجلس البابوي للحوار المسيحي الإسلامي سنة 1963 بالفاتيكان، ومستشارا في سكرتارية المجمع الخاص بالمؤمنين غير المسيحيين في الفاتيكان سنة 1965، وقد اشترك في المجمع الفاتيكاني الثاني من خلال اللجنة التي صنعت النصوص المعبرة عن نظرة الكنيسة الكاثوليكية إلى الإسلام والمسلمين، وقد كان أيضا عضوا في اللجنة الدولية لنشر مؤلفات ابن رشد.[1]

الاستئناس بهذه النماذج من العضوية التي تميز بها الأب قنواتي، تحيلنا إلى إنسانية الطرح الذي قدمه الأب قنواتي، فالحوار المسيحي الإسلامي أصبح مطلبا رئيسا في الراهن السياسي، لأن الصراع والتنافس على مناطق النفوذ بين الدول الكبرى، يتغذّى من هذه النوافذ، فالمسيحية عقيدة الحب والتفاني في الإنسانية، وكذلك الإسلام الأصيل الذي فقد مع المذاهب الجديدة جلّ الأبعاد الإنسانية التي أتى بها النبي الأكرم (ص)، وانخراطه في المجمع الخاص بالمؤمنين الغير مسيحيين يؤكد الطابع الرسالي والإنساني في

[1] ريجيسمورلون وهاني لبيب، الأب جورج شحاته قنواتي، معهد الدراسات الشرقية للدومينيكان، القاهرة 1998 ص: 11

شخصية الأب ولذلك عمل الأب على إقامة جسور التواصل والحوار بين العقيدتين انطلاقا من الأسّ الحضاري، والذي سنتعرّض له في فلسفة الأب قنواتي، فقد كان:".. الإنسان ..العالم ..المفكر الذي بذل حياته في سبيل العلم والحضارة ودعم قيم التنوير، من أجل خدمة المثل العليا والقيم الإنسانية السامية، فقد جاوز حدود دينه المسيحي إلى مصر كلها، ثم تعدّاها إلى الهوية العربية، ثم إلى الأفق الإسلامي واجتاز هذا كله إلى الأفق الإنساني العالمي.[1]

وقد كان الأب قنواتي عضوا مؤسسا للمؤسسة الدومينيكانية للدراسات الشرقية (IDEO) l'Institut dominicain d'Études orientales وهي المؤسّسة التي اشتغلت على تأصيل مبدأ الحوار بين المسلمين والمسيحيين، حيث وضعت نصب أعينها ثلاث معالم أهمها: دراسة الإسلام من المصادر بطريقة علمية، توفير مكتبة متخصصة عن الإسلام للطلاب والباحثين وإقامة ندوات، كما تتكفل بنشر البحوث في مجلة أكاديمية (MIDEOوالغاية الرئيسة هب العمل على تحقيق العيش المشترك، وترحب بالمهتمين في اللقاء بين الثقافات والأديان.

العقيدة الإنسانية:

تطرح السمة الديناميكية للمفاهيم إشكاليات نظرية على مستوى استيعاب الدلالة، فالفهم المتباين للدلالة عند المتلقّي للمصطلح يفسح المجال أمام الاختلاف بين بني البشر ثم يصل الاختلاف إلى درجة التصادم وعلى مستوى الفعل كلازم منطقي، وما أودّ الإشارة إليه هو الدلالات التي تحملها كلمة إنسانية واجتماعية، فالبعد الجلالي للكلمتين أقوى من بعدهما الجمالي، فقواعد البعد الإنساني تقتضي المحبّة المشتركة على قاعدة الاشتراك في مجموعة من الثوابت، وحدة الأصل، والغاية، فالبشر أبناء أب واحد، ورب واحد، ولو كان الأصل متعددا للوحظ ذلك في اختلاف الخِلقة البشرية، فالإنسانية معلم وقاسم مشترك للتوحيد، أما الاجتماعية فهي خاصية طبيعية ومدنية، تؤسّس لاختلاف وتفرّد شخصي وجماعي في نفس اللحظة.

الاختلاف الذي يتأسّس في البعد الاجتماعي راجع للتراكمات المتعددة للعادات والتقاليد والأعراف عبر الزمن، فالمجتمع قبل أن يكون مجموعة من الأفراد هو بالأصل

[1] المرجع نفسه ص: 12

مجموعة من الاعتقادات التي أصبحت عقائد عند المجتمع، وأصبحت تمارس سلطة النفوذ، والتعالي على جميع أبناء الجماعة تلك، فالانحراف الذي مس العقائد راجع إلى غياب القدرة على التمييز بين المعتقد أو ما يصطلح عليه بالفكر الديني، وبين الدين الحقيقي، لأنّ عوائق التمييز بين الصحيح والخاطئ مسألة فلسفية اضطرّت كثيراً من الفلاسفة إلى وضع أشكال متعدّدة من المنطق، فالتصادم مع السلطة الذاتية التي منحها الأفراد وأصحاب رؤوس الأموال للأفكار والمعتقدات الباعثة على الاستسلام داخل الجماعة، والتي لا تمتّ بصلة إلى الدين الحقيقي، فالاجتماعية مظهر خاص لمجموعة من الأفراد في حين أن الإنسانية طبيعة خالصة، ومالكة لجميع مقومات التآلف والاشتراك، فهي إذن تزييف للطبيعة، أو طبيعة ثانية والسياقات المذهبية المؤدلجة التي تحايث الطبيعة الاجتماعية وراء كل خلاف أو اختلاف في العقائد أو المعتقدات.. وعلى هذا الأساس اشتغل الأب جورج شحاته قنواتي على معالم الاشتراك في العقائد لإقامة جسر التواصل بين أبناء الطوائف، وسنتوقف عند محاضرة قدّمها، والتي تمثل بعض الغيض من الفيض الذي صدر عن عقله وروحه.

تطرح الدلالات المتعددة للإنسانية التباسات مفهومية، ودلالية عند القارئ، فالمعاني التي يحملها لفظ إنسانية في اللغة العربية، فالمرجعية اللغوية تؤسس لاختلاف في الفهم والتفسير. وارتبطت دلالة إنسانية بمفهوم إنسان، إذ وردت في القرآن الكريم 65 مرة، وكانت في جلّها تشير إلى البعد الأخلاقي لهذا الكائن أكثر من إشارتها إلى البعد المادي، فالمراد من كلمة إنسان ليس الجسد الظاهري، أو الصورة الخارجية، بل المقصود هو الباطن والخلقة، واستعداد الإنسانية وفطرتها، وشعورها مثل قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3)﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾.

يرى الأستاذ طه عبد الرحمن أن لفظ إنسان كان في الأصل يحمل مضمونا حسيا، وهو: الكائن ذو الصورة الآدمية في مقابل الكائن ذي الصورة الحيوانية، ثم اتّسع مدلوله تدريجيا، فصار يحمل مضمونا غير حسي أي معنوي . وهو كما تقدّم الكائن ذو الأخلاق."[1] ووقوعها في المرتبة الأدنى من الممارسة الأخلاقية يظهرنها: "النزعة التي تقصر

[1] طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، المغرب ط./2 .2006 ص: 175

همها على الإنسان باعتباره مستغنيا بذاته في وجوده وأفعاله، فلا تحتاج الى اعتبار خالق لهذا الإنسان أو التماس دين منه.."[1]

المعنى الثاني الذي يتقاطع مع مصطلح إنسانية لفظ الرجولة أو الرجولية، والتي تشكل جملة الصفات الخلقية التي يحصل بها للكائن البشري كمال الإنسانية، وليس في مدلول الرجل ما يفيد اختصاصه بالعقل من دون الحيوان[2]، وهو في التداول الشعبي عند العربي، يفيد دلالة قيمية أكثر من الدلالة الذكورية، والمتعلقة بجنس الكائن، فرجولة العربي قائمة على الكرامة والشرف والعرض، فالقيم الأخلاقية الأساس، والمرجع الدلالي للمفهوم.

أمّا المعنى الثالث الذي يحمل الخصوصية البشرية في التراث العربي والإسلامي، فهو المروءة والمقصود جملة الأخلاق التي يحصل بها للإنسان كمال الرجولة، أما المعنى الأخير فهو الفتوة الذي يكون المعنى الأولي الذي يقدمه للمتلقي هو الكائن البشري الذكر الذي ليبس بطفل ولا كهل، أي الشاب الحدث، ثم توسع"، فأصبح يدل اصطلاحيا عل معنى أخلاقي صريح منذ زمن بعيد.

فالفتى يتعالى على الإنسان وعلى الرجل والمروءة بخصوصيات أخلاقية، وأهمُّها كمال التديُّن، كمال القوّة، كمال العمل، والذي يزوِّد الفتى باتساع في الأخلاق، وهو لا يتسنى في ما عداها من رتب العمل، فالهوية الأصيلة إذن مرتبطة بالكمال في العمل، والفتوة هي الأكمل لامتلاكها هذه الخصوصيات، وتكون الهوية البشرية المؤسسة من طرف الفتوة هي الأوسع، والأقدر والأجدر.

الإنسانية إذن كمفهوم إنساني، مرن وقابل للتأويل، وتحديده بصورة قطعية يصبح فيها محاكيا للتعريف الدقيق قتل للدلالة، ومن مقتضيات التقعيد العقلي لكلمة إنسانية، القول بالحق في التمرّد على الطبيعة ذاتهاّ، ويصبح العقل فاقدا لكل حول وقوة أمام مشروعية استعمال السلطة في ممارسة الحق، وهذا ما نجده عند الأب قنواتي الذي عمل على تصحيح الدلالة التي وقعت فيها الكلمة .

وتقوم الإنسانية الأوروبية على تجاوز الدين أو الفكر الديني، والتاريخ يثبت ذلك، حيث كان الاستلاب الذي مارسته الكنيسة للحقوق الإنسانية، دافعا تاريخيا منح

[1] المرجع نفسه، ص: 177
[2] المرجع نفسه ص: 174

الشرعية لهذا التمرد وكان الله هدفاً لسهام كثير من النظريات الفلسفية المؤسّسة لتصور الإنسية، والدعوة إلى التحرر من الله كسلطة، وكعقيدة.واعتماد الإنسية أو النزعة الإنسانية الرؤية العلمانية كوثيقة مرجعية في التشريع المدني والأخلاقي، هي محاولة فكرية وثورة على الاعتقادات الدينية، فكان حق الحياة، والحرية، وباقي الحقوق الطبيعية المرتكز القوي لنظرية القانون الحديث، فأصبحت العقائد تكميلية، وثانوية بعد أن كانت الأسّ الرئيس في التشريع.

تقوم الإنسية عند الأب قنواتي على مرجعية أخلاقية، فالقيم التي تكوّن الإنسانية واحدة، وليس نسبية، وكما يقوا فولتير:" لا توجد إلا أخلاق واحدة مثلما لا توجد إلا هندسة واحدة " والحياة خارج القيم، ليست إلا جحيما مبلّطا بفسيفساء جميلة، والإنسانية في حد ذاتها مؤسّسة أخلاقية، وموجودة بغاية أن تعيش في مدينة أرضية وإلهية، وليست مدينة إلهية مفارقة لعالم الأرض، فهي صفة متعالية على الاعتقادات، والاعتقاد غير قادر على صنع تصور إنسانية موضوعية، لأنه مخاض لصور ذهنية، وتصورات مبنية وفق مؤشِّرات متباينة، يكون مؤشّر الجماعة أباً شرعياً لها، فالعودة إلى الفطرة الإنسانية الواحدة تكشف لنا عن القيم المشتركة التي تحملها دلالة إنسانية، يقول الأب قنواتي: " إني أريد إقامة مجتمع على أساس إنساني شامل يضع الله في مركزه، مجتمع يلبّي مطالب المسيحية والإسلام والعالم الحديث المعاصر بدون أن يمثِّل ذلك فقداناً لأي أحد".

والمرجع في ذلك عند الأب قنواتي أن البشر إخوة، مهما اختلفت الإثنيات فهُم من أصل واحد، وموجودين لتحقيق غايات واحدة، فالاختلاف الظاهر ليس إلاّ حالة عرضية، ويُصبح مرضياً إذا أصبح التوجه المستقبلي قائما على التقوقع داخل مصالح الذات، والرجوع إلى دراسة موضوعية للحضارة يقرِّر هذا الأمر الذي يكشف عنه الأب، وكتابه المسيحية والحضارة العربية نموذج للتزاوج الحضاري، والثقافي، والذي يصعب فيه إظهار لحاظ التميز بين الثقافتين، لأنّ التفريق بين الثقافات ليس إلاّ مشروع استلاب لإنسانية الثقافات المشتركة، فهو في تمهيد الكتاب يكشِف عن سعادته في التعاطي مع الموضوع، حيث يقول:".. عندما طلب منّي صديقي الدكتور محمّد خلف الله أن أُحضِّر بحثاً في مساهمة المسيحيين في تكوين الحضارة العربية، وأثرُها في الغرب سررت لدعوته، لأنّها جاءت بمثابة استجابة لأمنية طالما داعبت ذهني وإحساسي

العميق اللاشعوري، فقبلت دعوته بكل ترحاب شاكرا إيّاه لمشاركتي في عمل علمي، وثقافي جبّار يستحقّ تشجيع، ومساهمة كل من يفهمون عظمة الحضارة العربية، وأهميّتها بالنسبة إلى الحضارة الإنسانية العالمية."[1]

مسلمات الإنسية العقدية:

أولا: الله واحد حي قيوم

الأطروحة التي قدّمها الأب محاولة لقراءة جديدة للاعتقاد في ضوء النظريات الفلسفية الموضوعية، والبعيدة عن السياقات الإيديولوجية، فالإنسية كما يقول الأب: " قائمة على الله، نتيجة الإيمان بالله"[2] . فالأصل في الإنسية هو الله وليس الطبيعة، فالطبيعة نتاج لازم عن الله، وفيض عنه، وليست مستقلة بالمصدر أو بالغاية، فالقول بالطبيعة مغالطة، وتجاهل للمطلوب، وحجّته في ذلك قائمة على العلاقة الأزلية بين الإنسان والله، يقول: " إن الإنسان في المسيحية وفي الإسلام، هو في قلب العالم، تقول التوراة إنه خلقه على صورة الله، وعلى شبهه، ويقول القرآن إنه بالرغم من أنه من طين فقد نفخ الله فيه منه روحه، ولكي يحقِّق دعوته في الأرض أعطاه سمعا وبصرا وقلبا.[3]

انفصال الإنسية عن الله تمرُّد على الطبيعة ذاتها، لأن الرابط بين الله، وبين البشر أعمق بكثير من علاقة الخلق، فقد يتصوّر الإنسان أن الخلق يمنح الاستقلالية المطلقة عن الخالق، وهذا الوهم وقعت فيه الإنسية الأوروبية، والإسلامية التي نقلت عنها أصولها الفكرية، وأبعادها المستقبلية، فالله أصل مشترك بين العقائد كلّها مسيحية كانت أو إسلامية، وينبغي بناء الإنسية على هذا الركن في نظر الأب قنواتي، لأنّ المشترك هو الذي يجمع المختلف، والنموذج الذي اشتغل عليه الأب قنواتي هو المشترك بين المسيحية والإسلام، والذي يؤسس لإنسية جديدة، إنسية لاهوتية، مفارقة لإنسية الحداثة، يقول الأب قنواتي:" ..يعتقد المسيحيون والمسلمون أن وجود الله يثبته العقل ويؤكّده الوحي. فقد أقام علماء الدين المسيحيون والمسلمون براهين شتّى مختلفة ولكنّها متشابهة لإثبات وجود الله، وتحثّ الكتب المقدّسة على التأمل والاعتبار في آيات الله

---

[1] جورج شحاته قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ص: 5

[2] محاضرة: الإيمان بالله بين المسيحية والإسلام .ألقاها في 1987/09/11 بقاعة جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة. انظر: كتاب الأب جورج شحاته قنواتي، للمؤلفين: ريجيسمورلون وهاني لبيب، معهد الدراسات الشرقية للدومينيكان، القاهرة 1998

[3] المرجع السابق: ص 13

الكونية والنفسية، فهناك تشابه كبير بين علم التوحيد المسيحي وعلم التوحيد الإسلامي برغم الفوارق.[1]

اشتغل الأب قنواتي في علم الكلام الإسلامي واللاهوت المسيحي على بيان المشتركات الفكرية بين العقيدتين بغرض تأسيس قنوات للحوار بين أبناء الطائفتين، لأن الاختلافات أو الفوارق في الحقيقة لا تفسد في الود قضية، ولا تصل بأبناء الطائفة إلى الصدام، وحمل السلاح ضد الطائفة الأخرى، فالعقيدة الإنسانية عقيدة المحبة، والتأصيل الذي يقدّمه قنواتي للحوار المسيحي الإسلامي، ليس وجدانيا، حيث تكون مقدِّمات الحوار تحت بواعث دفاعية، مثل ما يفعل المسلمين مع الصهاينة في فلسطين، فالحوار المشروط لا يُمَكِّن الضعيف من بلوغ أدنى المطالب الحياتية، وهذا ما نشاهده على أرض الواقع وفي منطق السياسة.

تنطلق دعوى الأب قنواتي من مواقع قوة، لأن المسيحية عقيدة الأنظمة العظمى، وإن كان التوظيف السياسي، والفصل بين السلطة الزمنية، والروحية يبعد هذه الأنظمة عن جوهر المسيحية الأصيلة، واهتمام الأب قنواتي بالأصل الفلسفي هو اهتمام بالمشترك اليقين، أو بتعبير آخر البحث عن المقومات الثابتة التي تحقق اللقاء بين الحضارتين، فكانت الفلسفة وسيلته في ذلك.

وكتابه" فلسفة الفكر الديني بين المسيحية والإسلام " الذي كتبه مع الفيلسوف الفرنسي لويس غارديه، والذي ترجم في ثلاثة أجزاء من طرف الدكتور صبحي الصالح، والأب الدكتور فريد الجبر، يوحي بمشروع اللقاء الذي أقامه الأب قنواتي بين المسلمين (صبحي الصالح)، والمسيحيين (الأب فريد جبر)، والذي أصبحنا نفتقده، حيث أصبح المسلم عدوا للمسلم، ودمه قربى يتقرّب بها المسلم إلى الله، والذي يعكس السفاهة والسذاجة التي وصلها الاعتقاد الإسلامي حاليا.

ثانياً: الله خالق السموات والأرض

المبدأ الثاني الذي يقيم عليه الأب قنواتي الإنسية هو الغاية من الخلق، أو بصيغة أخرى البعد الوظيفي من الكون، فالعالم خلق من أجل الإنسان، وليس العكس، حيث كانت لفلسفة الواجب، والتعالي عن الغايات استتباعات سلبية، أصبح التعامل فيها مع

[1] جورج شحاته قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص: 17

العالم بلغة الوسائل أمر مهيناً، ويمكن الاستئناس بقول ايمانويل كانط: " لو كانت سعادة العالم بأسره في قتل طفل بريء لكان العمل لا أخلاقيا " للتعبير عن دلالة السلب التي لحقت بالغائية.

والنظر إلى الأشياء بعين الغائية لا يتعارض مع الإنسية العقيدية التي تستند على معالم لاهوتية، فعالم الأشياء موجود بجزئياته لخدمة البشر، والسير بهم نحو أفق الارتقاء، والاشتراك في ملكيتها دليل على وحدة الأصل والغاية لهذه الإنسية، فالطبيعة مشتركة في كل مستوياتها الفيزيائية والعضوية، والحقائق العلمية في عالم الحياة تكشف عن التقاطعات الثابتة بين الكائنات في الطبيعة، والتي تؤكِّد وحدة المرجعية.

والله هو الحيّ، وأصل الحياة كلها، ولهذا تجلى لنا من خلقه، في البدء خلق الله السموات والأرض وفق سفر التكوين، وهو بديع السماوات والأرض وفق العقيدة الإسلامية، هو رازق الجميع ومدبر الكل، وعنه تقول العقيدة الإسلامية إنه هو البرّ الرحيم المقيت الوهاب الرازق، ولا يستطيع المؤمن إلا أن يعجب كل الإعجاب عندما يرى ما في الكون والتاريخ من جمال ونظام وروعة. فالكون كون الجميع، وليس ملكا لأحد مادمنا نشترك في الواحد الذي خلق الكون.

ثالثاً: الله محب البشر

أمّا المبدأ الثالث الذي تتأسّس عليه الإنسية العقيدية عند الأب قنواتي فهو مبدأ الحب، فالنفس بطبيعتها تميل إلى من يحسن إليها، والعقيدة قائمة على مبدأ التحابّ الذي يشكِّل القناة والمعبر الرئيس للتواصل والاتِّصال، والأب قنواتي في إنسيته التي يدعو إليها يجمع بني البشر في مصادرة عقيدية، وهي: الله يحب البشر، يقول:" يؤكّد الكتاب المقدّس والقرآن إن الله هو العليم الحكيم الذي يعرف خليفته حق العلم «يا رب قد فحصتني فعلمتني، علمت جلوسي وقيامي، فطنت لأفكاري من بعيد....إنه الذي يرى جميع بني البشر، من مقر جلوسه، يراقب سكان الأرض أجمعين، جابل قلوبهم جميعاً وعالم بأعمالهم كلها، ويتّفق المسلمون والمسيحيون على أن يسمُّوه البصير السميع الرقيب العليم، وانّه أحصى كل شيء عددا.ولا ينبغي للمؤمن إن يخاف من قبل خالقه شيئا لأنّنا على حسب قول القديّس بولس نعلم أن الذين يحبون الله .. يعاونهم للخير .فإذا كان الله معنا فمن علينا ؟

رابعاً: أنبياء يرسلهم الله

يقدّم الأب قنواتي مجموعة أخرى من المعاني المشتركة بين بني البشر جميعا، والتي تؤسس لتقاطع مؤكد بين المسيحيين والمسلمين، وهي الغاية من الرسائل والرسل، فالاعتقاد بأن الله لم يترك الإنسانية إلى مآلها، بل إن الله كلّم البشر عبر التاريخ «في الأنبياء كلاماً متفرّق الأجزاء مختلف الأنواع»، أو كما في العقيدة الإسلامية أن الله يكلم الإنسان وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، فالمسيحيون والمسلمون على السواء يسمون إبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، ويتخذون من حياتهما أسوة حسنة، ومثالاً أعلى لإيمانهم وطاعتهم.

خامساً: الله يحيي الأموات ويرضي الأنفس

ومن العقائد المشتركة بين المسيحيين والمسلمين الإيمان بوجود مخلوقات أخرى من ملائكة وشياطين، والقول بمحدودية ونهائية العالم، وانتظار العالم الآخر، والباقي الواحد هو الله، وستعود إليه جميع المخلوقات في حشر كبير ونشر عظيم تتحدث عنه الكتب المقدسة في صور وأوصاف متعددة. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]. والجميع يشتركون في الإيمان بيوم القيامة ويوم الحساب، فالمسيحيون يؤمنون بأنه في يوم الدين « تتجمع لديه كل الأمم فيميز بعضهم عن بعض» والمسلمون يؤمنون بأنه يؤمئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» ويؤكد المسلمون والمسيحيون على السواء أن هناك دار الثواب وهي الجنة ودار العقاب وهي النار.

سادساً: الإنسان والعبادة

إن المسيحيين والمسلمين يحاولون كل وفق فهمه ومذهبه أن يكونوا خاضعين لمشيئة الله وأحكامه الخفية، فالمسيحيون يقولون كما يؤكّد المسلمون أنه لا خلاص للإنسان إلا الإيمان. فالأصل في الوجود ليس السعي بغية تحقيق الضرورات الحياتية، بل العبادة، جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] ويقر المسيحيون والمسلمون بأن أعمال الإنسان كلها يجب أن تتم في إطار طاعة الله وأن المثل الأعلى للمؤمن الحقيقي أن يمتثل لشريعة الله أحسن امتثال.

[1] سورة القصص .الآية: 88
[2] سورة الذاريات 56

إن الرسوم والطقوس في الصلاة والصيام والصدقة، وإن اختلفت عند المسيحيين والمسلمين، إلا أن قصدها واحد فكلهم يجتهدون لعبادة الله تعالى العبادة الحقة «مقرين باللسان، ومصدقين بالقلب ومخلصين بالعمل»، إن الصلاة والدعاء والتأمل والتضرع، والاعتكاف، كل هذه عادات قديمة أصلية يشترك فيها المسيحيون والمسلمون على السواء.

منهج الأب قنواتي:

يفترض البحث الموضوعي في الدراسات الإنسانية منهجية متعدّدة الاختصاصات، إذ أن طبيعة الحوادث البشرية، من حيث التعقيد والتغيّر، تندّ على كل تحديد وتعيين يفترض العالم أو الباحث في هذا الحقل بلوغه، ولذا نجد أن المنحى الموسوعي يبدو ظاهرا في أطروحة قنواتي في الإنسية، وعلى قاعدة الخصوصية الدينية التي تميزت شخصيته بها، يكون الحضور الثقافة الدينية ببعدها العلمي، وليس الإيماني، ففي دراساته يجد الباحث في علم الأديان المقارن نماذج حية وجاهزة لكثير من المعطيات العلمية التي يبحث عنها، فمقاربة النص المقدس مع تباين وجهات النظر مسألة تفترض روحا فلسفية، نجدها جليّة في كتاب فلسفة الفكر الديني الذي أنجزه مع الفيلسوف الفرنسي لويس غارديه، والتي تظهر في سبر كنه الخفي ما وراء الظاهر، فلا علم إلا بما هو خفي كما هو متعارف في الفلسفة، فالزخم الكلامي، والتعددية المذهبية التي عرفها الفكر الديني الإسلامي لم يقف أمام الأب قنواتي في إماطة اللثام عن سبب التي كمنت وراء أشكلة الفكر الديني الإسلامي، حيث يكشف الأب أن على الخلل في علم اللاهوت الإسلامي يعود إلى الحنابلة، وهي المنبع الذي استقت منه الوهابية التكفيرية مبادئها الفكرية ومشاريعها السياسية، والغريب في الأمر أن علماء الإسلام في غفلة من الخطر القادم من تجميد العقل والاجتهاد العقلي، والذي كرسته الثقافة الحنبلية في شخصياتها البارزة الشيخ ابن تيميه الحراني، وابن القيم الجوزية، والعلماء الجدد الذين أنتجتهم آبار النفط، ولنستمع للأب قنواتي:" مشكلة الإسلام اللاهوتية لم يطرحها علم الكلام صراحة وحقا، بل طرحها خصومه الألداء الحنابلة المتشددون.. وقد أبى الحنابلة كل تخريج عقلي ينطلق بحججه وأدلته من النص المنزل.."[1]

[1] لويس غارديه، جورج قنواتي، فلسفة الفكر الديني، ترجمة صبحي الصالح، فريد جبر دار، ج1 دار العلم للملايين، بيروت، ص 10

كانت الموضوعية عنوانا في البحث الذي ينجزه الأب قنواتي، إذ نلحظ فيس دراساته تسييجا منهجيا يكفل له بلوغ الموضوعية العلمية، لأن الخوض في علم العقائد المقارن ليس بحثا هينا، بل هو كما يصفه الحسن ابن الهيثم:".. الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته لا يعني طالبه غير وجوده، فوجود الحق صعب والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة في الشبهات ."[1].

ويلاحظ دوماً أنّ هذا النوع من البحوث تعترضه دوما ايديولجية واعتقاد الباحث، ولذا نجد الأب قنواتي يصرّح في مقدّمة الكتاب إلى أن الهدف من الكتاب ليس تفنيد علم الكلام الإسلامي في مقابل اللاهوت المسيحي، بل الهدف متعال على هذا القصد، يقول:"..والذي قصدنا إليه لم يكن رداً على علم الكلام باسم العلم اللاهوتي المسيحي، ولا عكس ذلك .."[2]

والتقيد بغاية ايديولوجية وذاتية يحيد بالباحث عن جادّة الصواب والحق، فالأصل في البحث العقائدي هو المعرفة، والتعلق بالحقيقة ليس إلاّ، يقول: ".. أردنا أن نفهم وأن نقارن، لا أن نناقش ونخاصم...والمقارنة لكي تكون ملأى بالنتائج الخصبة، لا يسعها أن تقف عند الإدراك الوضعي الظاهر للمدارس والقضايا وحسب، فقبل المقارنة ينبغي أن نعود بالفكر إلى القيم المعول عليها مأخوذة بقرائنها الخاصة كلها."[3] أمّا المراحل المنهجية التي ميّزت البحث العقيدي عن الإنسية، وعن الحقيقة الثابتة في المختلف عند الأب قنواتي، فيحدّدها في ثلاث:

التحليل:

تتعلق هذه المحطّة بجمع، وتحليل المادة المعرفية اللازمة في البحث، وبماّ أن مجال البحث كان منحصرا في نموذجين اللاهوت المسيحي، واللاهوت الإسلامي، فإن انتقاء المعطيات تعترضه عوائق ابيستيمية متعدِّدة، يكون فيها وعي الباحث عائقا، أمام الحقيقة، كما يشير الأب قنواتي إلى البعد الأكسيولوجي المحايث للمعطيات كعائق أيضا أمام الموضوعية العلمية، يقول الأب: " المرحلة الأولى تحليل مباشر يستقصي النصوص مأخوذة بحد ذاتها، ومن وجه ما بحرفيتها..وما يتعلّق بالنصوص العربية.. لم يكن بد من

[1] ابن الهيثم، الشكوك على بطليموس، تحقيق عبد الحميد صبره، دار الكتب القاهرة 1971 ص: 3
[2] لويس غارديه، جورج قنواتي، فلسفة الفكر الديني، ترجمة صبحي الصالح، فريد جبر، ج1 دار العلم للملايين بيروت، ص 20
[3] المرجع السابق، ص 20

أن تستند بياناتنا إلى جهاز فني قوامه وفرة المعلومات، وقد رددنا هذه الوفرة إلى حدها الأقل ."[1]

الشروط التي يحدِّدها الأب قنواتي لهذه المرحلة تكمن في الحرص على أخذ المعطيات من مصدرها الأصلي، والتقيُّد بجانبها الحرفي، كما كتبت، والذي يقتضي في الباحث التمكن الدقيق من قواعد لغة الوثيقة وأدبياتها، وهذا ما كان متوفِّراً في شخصية الأب قنواتي خصوصا فيما يتعلّق بقراءة النص الإسلامي، ويشترط الأب في هذه المرحلة اختزال المادة المعلوماتية إلى أقلّ عدد ممكن من المعطيات، فالكثرة تجعل من الباحث ضحية لها من دون أن يصل إلى الحقيقة، وخاصية الاختزال، سمة منهجية رياضية طرحتها النظرية الاكسيومائية الجديدة في الرياضيات، والتي تقترح اختزال المسلمات الرياضية إلى اقل عدد من المسلّمات، وهذا الملمح العلمي في شخصية الأب قنواتي يحتاج إلى بحث مستقل.

البناء:

إدراك، وسبر الحقيقة الخفية، الكامنة وراء الظواهر المقدّمة في المعطيات (الوثائق)، يحتاج إلى اجتهاد، بدلالته اللغوية، والتي هي بذل الوسع في طلب الحق، من خلال التحليل الأولي للمعطى، للنفاذ إلى عالم العلاقات الموضوعية، يقول:" المرحلة الثانية: مرحلة الاجتهاد للنفاذ إلى القضايا الرئيسة بغية إدراكها في أغوارها وإعادتها إلى صياغتها.. وينبغي أن يستعير من هيئات فكرية أخرى منطلقات موضوعية أخرى.."[2]

الاستعانة بأدوات منهجية وتعبيرية من حقول معرفية أخرى مثل الرياضيات لا ينقص من البحث العلمي شيئا بل يمنحه الدقة والعمق، وهذا ما يؤكِّد عليه الأب قنواتي في إضفاء الدقة والموضوعية على المسلّمات في حقل الأديان المقارن.

الحكم:

لا يقف الباحث في منهجية الأب قنواتي موقف المتفرّج على النتائج في بحثه، بل ينبغي عليه التصريح بموقفه، والذي ينبغي أن يكون بنية، من البنيات المؤسّسة لصرح الحقيقة،:".. المرحلة الأخيرة تستند إلى أن تتحمل كل فكرة نظرنا فيها، وإن كناّ لا

[1] المرجع نفسه، ص: 21

[2] المرجع نفسه، ص: 21

نتحمّلها لذاتها فقط بل لعلاقاتها بالمواد الشاملة التي أتت بها فكر أو ثقافات أخرى."[1]

وتشكّل هذه المحطّات الثلاث في علم العقائد المقارن أركان رئيسة، وضرورية في إدراك الحقيقة الموضوعية.

وإذا أخذنا عيّنة من نماذج البحوث التي قدّمها الأب قنواتي لوجدنا في كتابه فلسفة الفكر الديني، لوجدنا أن المنهج العلمي الموضوعي يظهر بارزا للعيان، إذ يقول الأب قنواتي في مقدمة الكتاب: " إنّما نريد أن نتدارس علم الكلام، مأخوذا على الوجه الذي بني عليه، وكما يعلّم حتى يومنا هذا في الجوامع الكبيرة الجامعية. وسوف نأخذه شيئا مسلما به.[2]

البحث في متون المصادر الأصل في موضوعية البحث، وليس دراسة النص من المراجع، أو من خلال عيون المخالفين، خصوصا إذا كان العمل متعلِّقا بالجانب العقدي، فالأستاذ الأب قنواتي لم يعتمد على الدراسات الاستشراقية للفكر الإسلامي بل عمل على وضع خطة ومنهجية تكفل له توخي الموضوعية العلمية، فاقتصر على مبحث اعتبره أساس الفلسفة الإسلامية وهو علم الكلام، ويبدو أن المقصد الذي يضعه لعلم الكلام يتوزع بين دلالتين، الدلالة العامة، والتي تنظر إلى علم الكلام كعلم حجاج عقلي أوجده العلماء للدفاع عن العقائد الإيمانية، أمّا المعنى الثاني فهو البحث في التوجُّهات الفكرية حول مسألة الكلام الإلهي، من حيث هو قديم أم محدث، والأب قنواتي يصرّح في هذا النص بالمحطات الأساس التي يعتمدها في دراسة اللاهوت الإسلامي، فالدراسات الاستشراقية بالنسبة إليه لم تتناول الموضوع من جوانبه الموضوعية، فكانت الدراسة عند الأب قنواتي بغرض البحث في كثير من النقاط المهجورة من قبل المستشرقين من زاوية فيقول: " مُهمّتنا أن نبحث في علم العقائد الإسلامية مثلما نجده في واقعه، وعلم الكلام، الذي هو أحد العلوم الدينية الرئيسية في الإسلام .معروف لدى المستشرقين، لقد خصّصوا له أكثر من مصنّف، لكننا مع ذلك لم نجد بدا من أن نقدم إبانة عنه جديدة".[3]

قدم الأب قنواتي مع لويس غارديه كتابهما فلسفة الفكر الديني بين الإسلام

[1] المرجع نفسه، ص: 21
[2] المرجع نفسه ص: 9
[3] المرجع نفسه ص: 11

والمسيحية في صورة جديدة، وفي ثلاثة أوجه.

الوجه الأول: علم الكلام في مضمونه الذاتي: حيث تمت المعالجة المفاهيمية، وتوصيف العلم في سياقاته الاصطلاحية والدلالية: " ماعسى أن يكون علم الكلام؟ وما عسى ان يبدو عليه في موضوعه وحقيقته ؟ وكيف جاء في أسلوبه وفي صياغة مصنفاته ..ولقد ركزنا نظرنا على النزعات البارزة في علم الكلام كما أُلف تدريسه في الجوامع الكبيرة... وكان القصد مجهود بذل إدراك العقلية الإسلامية من الباطن أكثر مما كان نتيجة علم موسوعي بالمعنى الحقيقي."[1]

الوجه الثاني: علم الكلام في قرائنه الثقافية والتاريخية

يقتضي المنهج الموضوعي دراسة العينة في أطرها الثقافية، والتاريخية، حيث لا يمكن فهم الفكر أو الحدث الاجتماعي بعيدا عن سياقه، ولذا نجد أن الأب قرر التعامل مع الظاهرة بهذه المنهجية الحفرية، يقول:".. لم يكن هناك من بد في أن نبين العلاقات العضوية التي تصل هذا العلم بتاريخ جوه الخاص في مختلف أطواره، من الزوايا السياسية والدينية والثقافية وهكذا لم تمس مهمتنا مجرد نظر في ارتباط بعض القضايا بعضها ببعض ولا مجرد عرض لمدارس علم الكلام إنما كانت أيضا مهمة نظر."[2]

الوجه الثالث: علم الكلام والثقافة العالمية

لم تكن الغاية من الكتاب قراءة النص الكلامي، ومقاربته مع النص اللاهوتي المسيحي بل كانت الغاية التأكيد على الجذور الثقافية والتاريخية للتزاوج الحضاري بين الثقافتين المسيحية والإسلام، حيث يقرّ الأب قنواتي والفيلسوف غارديه بضرورة التقارب بين الثقافتين، وإن كان التقارب لم يكن في المستوى المطلوب، والممكن، على قاعدة المشتركات التاريخية والحضارية بينهما يقول الأب: " .. لكن الواقع أن الحوار لم يقم إلا قليلا بينهما.. على انه أمر يقتضيه كل شيء فيما يبدو فهناك القرب في المكان.. بل هناك أيضا ما يختص بالبلدان الإسلامية المنتشرة حول البحر المتوسط .التوالي التاريخي على الأراضي ذاتها. ومواطن الملاقاة، وحتى الحروب الكبرى في الماضي ولا يجوز ان ننسى المعاني المشتركة المستمدة من العام ديني سامي، وموردا أخذه الطرفان .."[3]

[1] المرجع السابق، ص: 11

[2] المرجع السابق ص: 15

[3] المرجع السابق ص: 16

وخلاصة القول، نجد أن الإنسية التي يدعو إليها الأب قنواتي إنسية مشتركة، وأصيلة، تقوم ثوابتها على أصل لأنثروبولوجي مشترك، وحدة الخالق، ووحدة الأب، وحدة المصير والتي تدفع الباحث إلى الاستغراب، حيث يدركها الجميع من البشر، ولا يفقهها حق الوعي إلا المؤمنين المخلصين، وقد حزّ في قلب الأب قنواتي، وأمثاله من المؤمنين التشرذم الثقافي الذي تعيشه البشرية، والذي استثمرته الأنظمة الشمولية كذريعة في استنزاف ثروات الشعوب المستضعفة، وإذا كان معيار نجاعة الرسالة في الاستمرارية، فإن الأب قنواتي نموذج حي لهذا النجاح، فهو بحق التلميذ المخلص لرسول المحبة السيد المسيح عليه السلام.. والحب الذي لمسناه من قراءتنا المتواضعة لشخصية الأب قنواتي يعكس البعد الكوسموبوليتي للأب.. فقد كان نموذجا، ومثالا أرضيا لأخلاق بشرية تليق بإنسان سماوي.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- العهد الجديد

المصادر

1. قنواتي، جورج شحاته، لويس غارديه، فلسفة الفكر الديني، ترجمة صبحي الصالح، فريد جبر، دار العلم للملايين بيروت.الأجزاء الثلاثة
2. قنواتي، جورج شحاته، المسيحية والحضارة العربية، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر بيروت
3. ريجيسمورلون وهاني لبيب، الأب جورج شحاته قنواتي، معهد الدراسات الشرقية للدومينيكان، القاهرة 1998